الكتابات الجنائزية المسيحية بالمغرب القديم

دة./ مهنتل جهيدة

معهد الآثار-جامعة الجزائر 2

الملخص :

يتمحور موضوع المقال بعد مقدمة عامة، حول الكتابات الجنائزية المسيحية التي لم تكن تتميز كثيرا في البداية عن الكتابات الجنائزية الوثنية بصفة عامة بالمغرب القديم، من حيث الصيغة المستعملة، والتي عرفت تطورا تدريجيا ظهر أكثر في القرن الرابع ميلادي. وتعتبر الأمثلة المتخذة في مدينة قسنطينة نماذج لها دلالة كبيرة على المسيحية، لأنها تتعلق بطقس الشهداء المسيحيين.

تزخر الجزائر برصيد هائل من الكتابات اللاتينية، منها الكتابات الجنائزية المسيحية التي يصعب الحديث عنها لقلة الأبحاث، ولارتباط صيغتها بالكتابات الجنائزية الوثنية خاصة في القرون الأولى. وبذلك لا نستطيع تحديد تاريخ ظهورها بالضبط، والتعرف عليها بسهولة. ولم يكن هناك ما يسمى كتابات مسيحية بمعنى الكلمة بشمال إفريقيا بصفة عامة قبل القرن الرابع ميلادي. ويرجع الفضل للاكتشافات الأثرية في إسناد بعض الشواهد إلى المسيحيين من خلال العثور عليها داخل القبور وخاصة قبور الديناميس (Catacombes)[1]

رغم ان مدينة قسنطينة تعتبر من المدن الأولى بشمال إفريقيا من حيث العدد الهائل للكتابات المكتشفة بها، إلا ان نصيب الكتابات الجنائزية المسيحية يبقى ضئيلا جدا[2].

وقبل الحديث عن الكتابات الخاصة بالمدينة، يجب الإشارة إلى أهم العناصر التي تحتوي عليها الكتابات الجنائزية المسيحية بصفة عامة بالمغرب القديم والتي اختصرتها في ثلاثة نقاط رئيسية هي :

1-الكتاكومب، في الأصل محاجر قديمة استعملها المسيحيون الأوائل كمكان لاجتماعهم وأيضا كقبور تحت الأرض لهم.

2 - I. L. Alg, t II, nos, 1938, 1940, 1941, 1984, 1996, 1997.

1– الصيغة

إذا تمعنا أقدم الكتابات الجنائزية المسيحية، فإننا نلاحظ أنها لا تحتوي على آي إشارة خاصة، فالمسيحيون لم يحسوا مباشرة بعد اعتناقهم الدين ا لمسيحي إلى تجديد المفردات المستعملة عادة في الكتابات الجنائزية الوثنية، ولم تخرج الصيغة المستعملة إلا تدريجيا عن الصيغة التقليدية، بدليل استمرار استعمال العبارة الوثنية (D. M. S) الخاصة بالآلهة مان (آلهة الموت عند الوثنيين) إلى غاية فترة متأخرة جدا، خاصة في مقاطعة موريطانيا القيصرية. ولدينا مثال حي لذلك يخص نقيشة عثر عليها بتلمسان تعود إلى القرن السابع ميلادي[1]. اى ان بوادر الدين الجديد كانت محتشمة في الكتابات.

2- الرموز والعبارات الدالة على الإيمان.

يعتبر رمز السمك من بين أقدم الرموز الدالة على الإيمان بالدين المسيحي. وغالبا ما أسندت بعض الكتابات إلى المسيحية من خلال فقط هذا الرمز، الذي كان منتشرا بكثرة لدرجة انه يصعب فهم معناه الأول. هل كان له معنى متعلق بالآخرة (Eschatologique)، أو انه مثل الغذاء الأساسي في الوليمة المسيحية[2]. وكثيرا ما أرفق هذا الرمز برسم المرساة للدلالة على الأمل في الحياة الأبدية. وبعد عهد الإمبراطور قسطنطين- (Constantinus 307-337-)، ظهر رمز الصليب الذي ادمج داخل جملة وهو يعبر عن كلمة المسيح التي تكتب في كثير من الأحيان في حالة المضاف إليه - Christi- أو في حالة القابل - Christo- أو بدون آي لاحقة نحوية.

وتميزت كذلك الشواهد الجنائزية المسيحية الأولى بظهورها على شكل اهداءات، باستعمال فعل واحد يشير إلى إقامة معلما ما، مع اسم الهادي في حالة الفاعل واسم الميت في حالة القابل مثل ما هو الحال عند الوثنيين.

أما العبارات الدالة على الإيمان، فقد كانت الكتابات الأولى تتكون فقط من اسم المتوفى متبوعا بعبارة – in pace- (في سلام.)، وتنوعت معاني هذه العبارة فيما بعد، فاستعملت مع اسم الميت أو مع صفة له خاصة الصفة، - fidelis- (الوفي)، لتؤدي معنى النعمة التي كان عليها الشخص عند موته. ومع الفعل - vixit- (عاش)، فكانت تعني ان الميت كان في نعمة في حياته. ومع أفعال أخرى تعبر عن الموت، مثل الفعل -

---

1-. I. L, VII, no, 9935.

2-Vogel. C, Le repas sacre au poisson chez les chrétiens, dans Eucharisties d'orient et d'occident, Paris, 1970, pp, 83-116.

recedere- (يبتعد أو ينسحب) والفعل - quiescere- (يتوقف) أو الفعل - requiescere- (يرتاح) فكانت تعنى السلام في الآخرة. [1]

3- تطور الصيغة المستعملة في الكتابات المسيحية.

بعد ان كانت الكتابات الأولى لا تختلف كثيرا عن النصوص الوثية، واكتفت باستعمال فعل واحد عرفت تطورا في الصيغة تجلى أكثر في القرن الرابع، حيث أصبح نص الكتابة يتكون من ثلاثة أفعال، منها افعال لها معنى الإقامة في القبر، مثل الفعل المركب- positum esse- (يكون موضوعا) أو الفعل - iacere- (يستلقي) أو مع - quiescere – و- requiescere – المذكورين من قبل. ومعنى مدة الحياة التي قضاها الميت، باستعمال الفعل -vivere - (يعيش) وأخيرا معنى الدفن مع اسم ا لمعنى - depositus- (موضوع في التراب) وخاصة مع الفعل- obire- (يموت) والفعل- transire- (الذهاب إلى الجهة الأخرى)، و- spiritum reddere- (يرد النفس). وكانت تتبع هذه الأفعال عموما بتاريخ يوم الوفاة خاصة، وأحيانا تذكر السنة بصيغ مختلفة (السنة الميلادية، الحكم وغيرها) [2].

وادخل المسيحيون كذلك عبارات تدل على حب وعطف الأحياء للأموات مثل عبارة - dignissimus- (جليل جدا) و- sanctissimus- (مقدس جدا)، بالإضافة إلى كلمة - dulcissimus- (وديع جدا) و- carissimus- (عزيز جدا)، ولقد وردتا هاتين الأخيرتين بكثرة أيضا في الكتابات الجنائزية الوثية.

وما يمكن قوله حول الصيغة المستعملة في الكتابات المسيحية، أنها عرفت تطورا تدريجيا لم يخضع إلى قواعد واضحة، فتنوعت وتميزت حسب المناطق وحسب الأشخاص. ويبقى الفرق البارز بينها وبين الكتابات الوثية ان هذه الأخيرة تشير إلى عمر الميت، بينما المسيحية تشير إلى تاريخ وفاة الشخص.

وتعطينا النماذج التالية من كتابات مدينة قسنطينة فكرة عن التنوع في الصيغة المستعملة، وهي نماذج لها دلالة كبيرة على المسيحية، لأنها تخص طقس الشهداء المسيحيين.

1-Duval. N, Les inscriptions chrétiennes d'Haidara, dans, Ant Af, 33 1997, p 188.

2-Lassere J. M, Manuel d'epigraphie romaine, edit, Picard, Paris, 2005, p 275.

الكتابة الأولى[1]

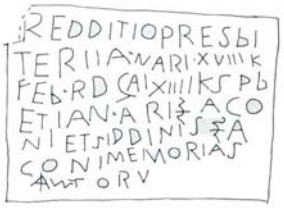

(نقشت الكتابة فوق بلاطة من الحجر الجيري الأبيض، (توجد حاليا بحديقة متحف سرتا.)

وهي تعود إلى فترة متأخرة حسب ما يدل عليه شكل الحروف، خاصة كتابة حرف - z - للدلالة على –di كما هو واضح في السطرين الرابع والخامس. ويحتوي نص الكتابة على عبارتين هامتين هما - memoria- (ذكرى) و- redditio- المأخوذة عن فعل - reddere- (الرجوع.)، وهي صيغة جنائزية انتشرت بكثرة في الفترة المتأخرة. وما يلفت الانتباه في هذه النقيشة، هو وجود عبارة - memoria- في أخر الكتابة وليس في أولها مثلما هو معمول به، وبدون صيغة تشير إلى الإهداء.

وهي شاهدة جماعية تخص أربعة أشخاص هم، راهب اسمه- Januarius- وشماسين (diacres) - Januarius- و- Siddin- (اسم محلي) والرابع اسمه - Gaius- قد يكون ربما هو أيضا راهبا. ثلاثة منهم توفوا في نفس اليوم (14 من غرة شهر سبتمبر) أما الراهب الرابع الذي انتمى إليهم، فتوفي قبلهم بشهور (18 من غرة شهر فيفري).

و قد لا يكون التاريخ الذي جمعهم دليلا قاطعا على أنهم شهداء، ربما كانوا ضحية وباء أو شيء أخر، لان شواهد الشهداء تحمل في الكثير من

1-Duval Y. , Loca sanctorum africae, ecole francaise de rome, I,1982, n, 92, p186.

الأحيان بعض التفاصيل حول ظروف موتهم، أو ربما عبارة - memoria- هنا تعني - mensa- أي طاولة (القديسين).

وهو تفسير يبدو صحيحا ومقبولا ، خصوصا ان الدعامة التي نقشت فوقها الكتابة هي بلاطة تصلح ان تكون طاولة جنائزية.

الكتابة الثانية[1]

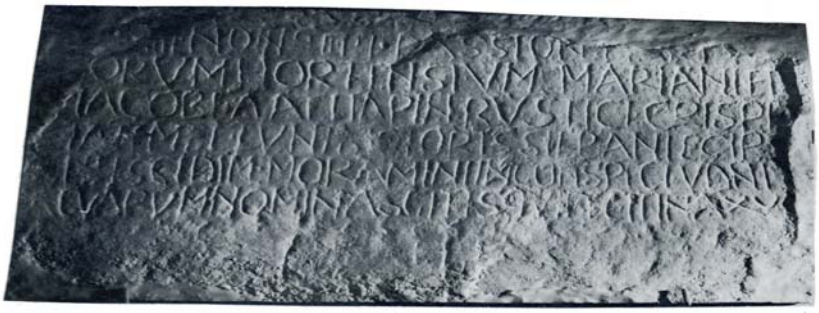

+IIII·NON SEPT·PASSIONE MARTVR
ORVM HORTENSIVM MARIANI ET
IACOBI AATI IAPIN RVSTICI CRISPI
& TAT+METTVNI BICTORIS SILBANI EGIP
TIII SCI DI MEMORAMINI IN CONSPECTV DNI
CVARVM NOMINA SCIT IS QVI FECIT INA XV
+

نقش نص هذه النقيشة فوق صخرة، علي الضفة اليمنى لوادي الرمال باتجاه جسر سيدي راشد ، وهي مصنفة ضمن المعالم التاريخية لمدينة قسنطينة. ولم تعد تظهر جيدا ، وربما قد تزول قريبا بسبب أشغال جسر الاستقلال الجديد بالمدينة. ولقد رسمها من قبل دولامار (A. Delamare) وأعيد تشكيلها في الجير. والقطعة المشكلة موجودة بمتحف المدينة وهي التي تظهر في الصورة هنا.

وتعود هذه الناقشة إلى الفترة البيزنطية من خلال صيغة التاريخ الظاهرة في أخرها في كلمة - indictione[2]

وتشير إلى انه في 4 من الربع الأول من أقمار شهر سبتمبر (نقشت هذه الكتابة) لألام الشهداء الارتتسيين - Marianus- القارئ، - Jacobus- الشماس و- Datus-، - Iapin-، - Rusticus- ، - Crispus-، - Mattun-، - Victor-، - Silvanus-، - Egiptus- قديسي الله، قام (بانجاز هذه النقيشة) الذي يعرف أسماءهم، اذكروه في حضرة الرب في 15 - indictione-

---

1- ILAlg, t II, n, 1937.

2 - Indictione نظام للتاريخ يعود إلى فترة إصلاحات ديوكليتيانوس (القرن الرابع)، أصبح إجباري في عهد جوستنيانوس(القرن السادس) وهي طريقة غير كافية للتاريخ إذا لم تذكر السنة واليوم.

وتحمل الكتابة صيغة الإهداء التي نجدها هنا في كلمة - passione-، وهي صيغة نادرة وتعود إلى فترة متأخرة جدا، لان الشكل المعمول به أكثر في الكتابات المخلدة لذكرى الشهداء، يكون بذكر الأسماء ثم الفعل المركب - passi sunt- (ممدودين)، ثم وضع تاريخ ومكان الاستشهاد.

ولقد تحدثت النصوص عن ألام القديسين ياكوبوس وماريانوس المذكورين في هذه الناقشة من خلال شهادة احد رفاقهم في عهد الإمبراطور فالريانوس، حيث تم توقيفهما في ضيعة قريبة من مدينة قسنطينة، ثم نقلا إلى مدينة لامبيز أين اعدما مع مسيحيين آخرين بخندق مجاور لمعسكر لامبيز[1].

ويبقى السؤال مطروحا حول الأسماء الأخرى الواردة في النص، ومنها اسمين محليين، متان (ورد في لوحات معبد الحفرة❖) وايابين، والأسماء الأخرى. فهل كانوا رفاق القديسين فعلا، لان العلاقة غير واضحة بينهم. كذلك الأمر بالنسبة لكلمة - hortensis- التي تنسب إلى اسم مكان ما، لم يحدد. فهل يقصد به المكان الذي توقفا فيه القديسين قبل ان ينقلا إلى سجن لامبيز. كما ان الكتابة تطرح إشكالا أخر حول مكان الاستشهاد، فعادة الكتابات المخلدة ذكرى الشهداء تنقش في نفس مكان استشهادهم. فيمكن ان ترمز الصخرة التي نقشت فوقها الكتابة إلى الخندق الذي اعدما فيه القديسين.

الكتابة الثالثة[2]

1-Ruinart. TH, Acta……1859, pp 225-232
2-Duval. Y, Loca……. . 1982, N° 94, p194.

تختلف الكتابة الثالثة عن الكتابتين السابقتين لأنها رسمت ولم تنقش فوق ذخيرة (reliquaire) مسيحية لها شكل متوازي المستطيلات، تحتوي على دائرتين لاستقبال الذخائر. و تتشكل الكتابة من جزأين، جزء أول يحتوي على تسعة اسطر غير منتظمة ولا تظهر فيها الكلمات جيدا. يحتوي السطر الأول فيها على كلمة - domini- (السادة) ويشير حرف - m- إلى كلمة - memoriae- (لذكرى) ربما، ويحتوي السطر الثالث على كلمة - sanctorum – (القديسين) أما السطر التاسع فيشير إلى صيغة التاريخ التي تعود إلى الفترة البيزنطية من خلال عبارة - indictione-

واقترحت ديفال (Y. Duval) أن تكون السطور الأولى للكتابة تعلن عن قائمة ذخائر غير واضحة، ولا تظهر أسماء القديسين. ويحمل السطر الاخير تاريخ الكتابة وهو غير أكيد، حيث هناك إشارة إلى العدد - X-. آو - XI-، فربما ترجع إلى عهد الإمبراطور جوستنيانوس (527-565 -Justinianus -) او الامبراطور جوستنيوس (– 518 -527 Justinus-)[1].

أما الجزء الثاني من الكتابة فيتكون من ثلاثة اسطر.

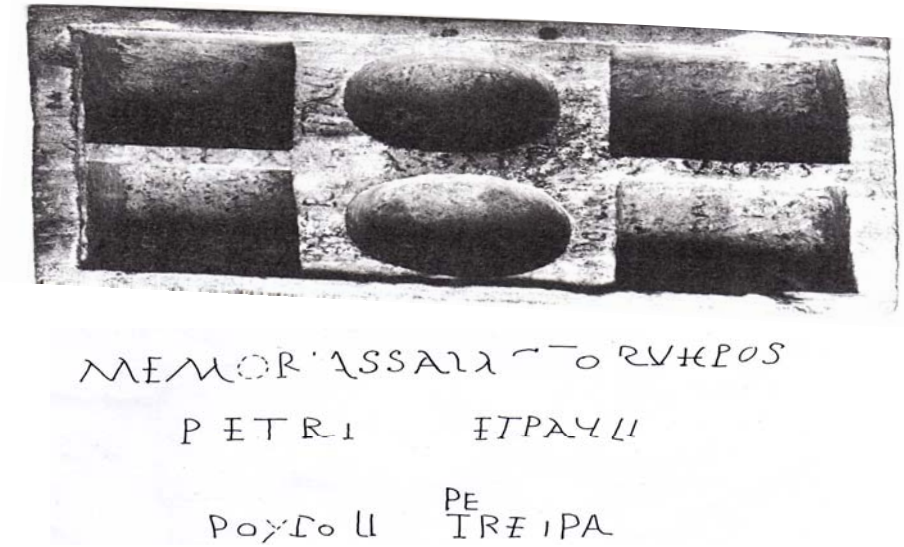

Memorias sanctor (um) h (ic) pos (itas)

Petri et paul

Apostoli pe/ri et pa

1-Duval. Y, Loca……. 1982, p 195.

ويشير نص الجزء الثاني من الكتابة إلى ذخائر الحواريين الرومانيين (apôtres)، حيث ظهرا اسمهما مكررا في النص وهما - Paulus - و- Petrus - وهي من الشواهد النادرة التي تشير إلى طقس الحواريين في فترة متأخرة جدا، وهي الفترة البيزنطية حسب ما تشير إليه عبارة - indictione -

وما نستخلصه من هذه النماذج، أنها تفتقد إلى عناصر هامة، نجدها عامة في الكتابات الخاصة بالشهداء المسيحيين، تتعلق بذكر مكان وزمان ألام القديسين، وهذا ما يؤكد تنوع الصيغ المستعملة في الكتابات المسيحية. فقد جاءت هذه النصوص بمدينة قسنطينة بنوع من الخصوصية التي لطالما تميزت بها هذه المدينة عبر كل مراحل الفترة القديمة التي مرت بها. أيضا ان الكتابات المخلدة لذكرى الشهداء المسيحيين تعتبر قليلة بشمال إفريقيا، بالنظر إلى عدد القبور الخاصة بالقديسين التي أحصت الاكتشافات الأثرية عددها الكبير خاصة بمقاطعة موريطانيا القيصرية. ويرجع وجود القبور بأكبر عدد من الشواهد إلى كون طقس الشهداء ولد فوق القبر ويرتبط ارتباطا وثيقا به، لان يوم موت الشهيد المسيحي يعتبر هو يوم مولده. والآلام التي كان يريدها عند موته تكون بذلك تشبه ألام السيد المسيح (عليه السلام) عندما اصلب. وعن قلة هذه الكتابات بمدينة قسنطينة وحتى في مقاطعة نوميديا التي تنتمي إليها المدينة، فمن وجهة نظري الخاصة، فان الأمر ليس غريبا، فهي كانت من أكبر المراكز الدوناتية والتي هي نوع من الهوية المحلية التي تمردت عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الآتية من روما.

وما يمكن قوله أخيرا بصفة عامة، ان الكتابات الجنائزية هي أحسن وثيقة مادية تقربنا من مجتمع الفترة القديمة لما تحمله من معلومات هامة، فهي كالمرآة العاكسة له.

المختصرات:

-Ant. Af, Antiquités Africaines.
-C. I. L, Corpus Inscriptionum Latinarum.
-ILAlger, Inscriptions latines de l'Algérie.

بيبليوغرافيا:

-Concile de Carthage, apud Hartel, édit, Cyprien.
-Ruinart. Th, Acta primorum martyrum ,sincera et selecta ,Paris ,1859.
-Duval. N, Les inscriptions chrétiennes d'Haidara ,dans ,Ant Af ,33,1997.
-Duval. Y ,Loca sanctorum Africae ,Ecole française de Rome ,I ,1982.
-Fevrier. P. A, Deux inscriptions de Tébessa et Henchir touta, dans ,Rivista di archeologia cristiana ,XLII,1966
-Lassere J. M, Manuel d'épigraphie romaine, édit, Picard, Paris ,2005
-Monceaux. P, Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne, Paris,1901-1923.
-PFaum. H-G, Inscriptions latines de l'Algérie, Paris, 1957.
-Vogel. C, Le repas sacre au poisson chez les chrétiens, dans, Eucharisties d'orient et d'occident, Paris ,1970.